أحكام النقاد القدامى على شعر المديح (الرغبة أنموذجاً)

*د. نور الدين آدم نور الدين يعقوب *د. محمد حسن شايبو عمر **د. أبوهداية محمد إسماعيل محمد

المستخلص: هذه الدراسة تتناول الأحكام النقدية التي أطلقها النقاد القدامى على شعر المدح الرغبة أنموذجاً؛ بهدف تعرّفها والكشف عن الدور الكبير لدوافع المدح في توجيه تلك الأحكام النقديّة. وتظهر أهميتها في أنّها تحاول إسناد المدائح إلى دوافعها وقراءة الأحكام التي قررها النقاد قراءة متأنية وفق هذه الدوافع لبيان ما إذا كانت قويمة أم هي بحاجة إلى تقويم .اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، وتوصّلت إلى مجموعة من النتائج يتمثل أهمها في أنّ الحكم على شعر المدح تأثر بصورة كبيرة بدافع الرغبة، وهو دافع صرف النقّاد عن النظر إلى المدح على أنّه فنّ له خصائصه التعبيريّة، والجماليّة التأثيريّة، وله رسالته الاجتماعية والتربويّة الخلقيّة، وسماته الذاتيّة والإنسانيّة. فتجاوزوا الفنّ ونظروا إلى العلاقة بين المادح والممدوح، وعلى ضوء هذه النظرة كانت أحكامهم.

مقدمة:

المدح في الشعر العربي موضوع قديم، اتخذه الشعراء غرضاً أكثروا فيه من نظمهم فصار من أكثر أغراض الشعر طرقاً ومن أكثرها سعة، ولا تكاد تجد في ديوان الشعر العربي من لم يطرق هذا الغرض إلا قلة قليلة.

وقد حرص الرواة على رواية ما نظم في المدح وتقييده، واحتفى النقاد به، وجعلوه أهم أغراض الشعر، بل جعلوه غاية القصيدة العربية بوجه عام، إلا أنّ هؤلاء النقاد أنفسهم أصبحوا يطلقون عليه، بل على الشعر عامة أحكامًا قد تكون مضطربة في بعض الأحيان، رددها نقدة الشعر من لدن ابن سلّام حتى تاريخه دون درس متعمق، أو نظر لما يؤديه الشعر من وظيفة خطيرة في المجتمعات، وأغفلوا في أغلب الأحيان استصحاب دوافع المدح حين أصدروا أحكامهم، ولم ينظروا إلا إلى الجانب النفعي الذي يتنج عن دافع الرغبة، الأمر الذي جعل أغلب أحكامهم النقديّة تتّجه إلى نعت شعر المدح بالتكسّب، وإلى النظر إلى الشعراء أمثال زهير والنابغة وغيرهم على أنّهم متكسبين لا رسالة لهم إلا السؤال بالشعر، وما تزال أحكامهم ومقاييسهم – على ما في بعضها من خلل – باقية تعاد وتكرر ويدور اللاحقون في نطاقها دون الإشارة إلى ذلك الخلل.

ونظرًا لما تقدم جاءت هذه الدراسة لتكشف عن الأحكام النقديّة التي وجّهت إلى شعر المدح وعما وجه النقاد إليها من الدوافع، محاولة التنبيه إلى الأحكام التي تحتاج إلى إعادة نظر وتقويم. معتمدة فيذلك على المنهج الوصفي التحليلي.

*أستاذ الأدب والنقد المساعد، كلية اللغات والعلوم اللغوية، جامعة زالنجي، السودان
*أستاذ الأدب والنقد المساعد، كلية اللغات والعلوم اللغوية، جامعة زالنجي، السودان
** أستاذ الأدب والنقد المشارك، كلية التربية، جامعة كردفان، السودان abuhedaia@yahoo.com

ماهية المدح ودوافعه:

إنّ المدح هو الثناء والإكبار والاحترام، يتوجه به الشاعر إلى ممدوحه ليرفع به لواءه بين النّاس، مسجلاً صفاته الطيبة، ومزاياه الرفيعة، وأخلاقه السامية مستقصيًا كل فضيلة من شأنها أن تضعه على ذروة المجد، وكلّ سجيّة خليقة بأن تجعله يتسنم ركاب الممدحين بأرفع الفضائل الخلقية والنفسية التي يقدرها المجتمع، ويُكبر شأن من يتّصف بها ويُعليه.

والمدح يصدر عن دوافع متعددة تدفع الشاعر إليه. فالشاعر إمّا أن تهزّه الفضائل العالية والخصال الحميدة فيعجب بها، ثم يدفعه هذا الإعجاب إلى المدح، وإمّا أن يُسدَى إليه معروف يطوق عنقه فلا يستطيع المكافأة عليه إلا بالشعر، فتدفعه الرغبة في الشكر إلى المدح والثناء على من أسدى إليه ذاك المعروف. وإمّا أن يدفعه العوز، وتلحّ عليه الحاجة، سواء أكانت الحاجة تتمثل في المحافظة على نفسه من خطر داهم ووضع مزري، أم في إحساسه بضرورة تقديم يد العون لإنقاذ آخر تملي عليه الضرورة إنقاذه، أم كانت الحاجة متمثلة في سدّ فاقة وفقر يعانيه فتدفعه الرغبة في تلبية تلك الحاجات إلى مدح من يرجوا أن يقضي له تلك الحاجات. وإمّا أن يشعر بالخوف والرهبة من خطر يتهدده من قبل من يمدحه، فتدفعه هذه الرهبة إلى مدحه والثناء عليه اتّقاء لشرّه ودفعًا لما يتوقع منه من أذًى تجاه الشاعر.

وعلى ضوء هذا يمكن تصنيف دوافع المدح إلى: دافع الإعجاب، ودافع الشكر والتقدير، ودافع الرغبة، ودافع الخوف أو الرهبة.

ويبدو أنّ النقّاد القدماء أغفلوا هذه الدوافع، ولم يهتموا إلا بدافع واحد فقط هو دافع الرغبة، وعلى ضوء هذا الدافع صدرت أحكامهم النقدية الخاصة بالمدح؛ فلم يروا فيه غير الزّلفى والتقرب والاستجداء والتسوّل، بل عمّموا هذه الأحكام على الشعر بصورة عامة، فقضوا عليه بأنّه تجارة العرب على نحو ما سنرى لاحقًا.

الأحكام النقديّة التي تتعلّق بالمدح:

إنّ النظر إلى المدح من خلال دافع الرغبة جنى على الشعر العربي بصورة عامة وعلى شعر المديح بصورة خاصة، لأن النقّاد لم ينظروا إلى المدح على أنّه فنّ له خصائصه التعبيريّة، والجماليّة والتأثيريةّ، وله رسالته الاجتماعية التربويّة الخلقيّة، وسماته الذاتيّة والإنسانيّة. وإنّما تجاوزوا الفنّ ونظروا إلى العلاقة بين المادح والممدوح، وعلى ضوء هذه النظرة كانت أحكامهم التي جاءت في معظمها قاصرة لم تدرك جوهر الموضوع، كما أنّها جاءت بلسان فاضح انتهك به النقد حرمة التراث في تجريحه العنيف لهذا الغرض. "ولم يحاول الدارسون

الكشف عن القيم الإنسانيّة التي شملها موضوع المدح، واكتفى بعضهم بترديد أقوال القدماء عن المدح، وحصروا أنفسهم في دائرة العلاقة بين المبدع والممدوح، ولم يحاولوا فحص قصائد المديح والتعرف على أبعادها الفنيّة والإنسانيّة"[1].

ولما كانت النظرة متجهة إلى العلاقة ما بين المادح والممدوح وهي علاقة تبعد عن إطار الفنّ المعني؛ فإن النقاد القدماء لم يروا في المدح إلا أنّه شعر ينشأ عن دافع الرغبة والطمع أو الرجاء. وكلها في عرفهم تعني رغبة الشاعر في المال. يقول ابن رشيق: " وكانت العرب لا تتكسّب بالشعر... حتّى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر ... فسقطت منزلته، وتكسب مالاً جسيمًا ... وتكسّب زهير بن أبي سلمى بالشعر يسيرًا مع هرم بن سنان، ... فلمّا جاء الأعشى جعل الشعر متجرًا يتّجر به في البلدان، وقصد حتّى ملك العجم ... وأكثر العلماء يقولون إنّه أول من سأل بشعره. ثمّ أنّ الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر والإلحاف حتّى مقت ، وذلَّ أهله، وهلمّ جرا، إلى أن حرم السائل وعدم المسؤول "[2]. ويروي الأصفهاني أنّ معاوية قال لعبد الرحمن بن الحكم: "إنّك قد لهجت بالشعر، فإيّاك والتشبيب بالنساء فتعرّ شريفة، وإيّاك والهجاء فتهجّن كريمًا أو تثير لئيمًا، وإيّاك والمدح فإنّه كسب الأنزال"[3].

وأراء النقاد التي تكشف عن هذه الرؤية كثيرة تبعهم فيها نقاد العصر الحديث، الذين جاءت آراؤهم تكرارًا لآراء سلفهم من النقّاد، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها، ولكن ما يحمد لهم أنّهم فصلوا بين شعر المدح و بين الشعر الذي نظم في أغراض أخرى على خلاف ما كان عليه القدماء. يقول السباعي بيومي "إنّ التكسب بالمدائح وطلب الاستجداء بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم – يعني الجاهليين – فكان منهم من تكسب في ترفع كزهير، أو تنزّل كالأعشى، أو بين بين كالنابغة ..."[4]. ويقول خفاجي: "المدح من أهم أبواب الشعر العربي، وكان للمدح مكانة كبيرة في العصر الجاهلي، وخاصة بعد أن تكسّب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم"[5].

وإلى التكسب بالمدح أشار العديد من النقّاد في العصر الحديث ممّن تناول المدح بالدراسة[6]. ويحمد لبعضهم إشارتهم إلى أنّ هناك دافعًا آخر – يمرون به على عجل – هو دافع الإعجاب.

1- يوسف(حسني عبد الجليل)، الأدب الجاهلي، قضايا، وفنون،ونصوص،ط1،مؤسسة المختار، القاهرة ،2001، ص:252.
2- ابن رشيق(القيرواني)،العمدة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،ط5،دار الجيل،1981،جـ1،ص:80-82.
3- الأصفهاني(الراغب)،محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: إبراهيم زايد، مكتبة الهلال، مصر،1902م،ص:39.
4- بيومي(السباعي السباعي)، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مطبعة العلوم،مصر،1932م،ص:122.
5- خفاجي(محمد عبد المنعم)،الحياة الأدبيّة في العصر الجاهلي،ط1، دار الجيل،بيروت،1992م،ص:309.
6- انظر: ضيف(شوقي)،تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي،ص:211-212. والعصر الإسلامي، ص215.
و فرّوخ(عمر)،تاريخ الأدب العربي،ط4،دار العلم للملايين،بيروت،1981م،ص:83.

وما يمكن قوله هو أن المدح لم يكن أُسِّس على الكسب في مبدأ الأمر، لأنّ الدافع الأول له هو الإعجاب والحب والتقدير، وأنّ الدافع الثاني له كان الشكر، ولم تظهر الرغبة إلا متأخرة نتيجة للتغيرات التي طرأت على المجتمع العربي. ولكن فكرة التكسب التي ترسخت في أذهان النقّاد صرفت أعينهم عن النظر إلا إلى الرغبة.

والذي يلاحظ أنّ النقاد حين يتناولون التكسب بالمدح؛ كانوا يشيرون إلى الجاهليين وإلى شعراء عصر بني أميّة، دون أن يركزوا على شعراء صدر الإسلام، رغم وجود حسّان بن ثابت وغيره ممن عدّوا في زمرة المتكسبين. ولعل هذا يرجع إلى تأثير الإسلام في الشعر والشعراء، على نحو ما يرى سعيد حسين منصور حين يقول: "إنّ ظاهرة المديح هذه والتكسّب في الشعر التي أدانها الكثير من النقّاد ... لا نرى لها أثرًا كبيرًا في الشعر الإسلامي في عصره الأوّل. وكان هذا من مظاهر التأثير المباشر للإسلام في توجيه الشعر الوجهة التي تبعده عن بعض صور الجمود. فالإسلام قد أراد للشعر أن يستجيب للحياة الإسلاميّة والقيم الخلقيّة الجديدة فيها، وأن يكون بذلك تعبيرًا صادقًا لا زيف فيه ولا تملّق ولا رياء، ولا مما يمكن أن يوصم به شعر التكسّب الذي يرضي الشاعر فيه بعض جوانب الصنعة الفنيّة دون أن يرضي أهمّ شيء فيه هو الشعور الإنساني الخالص في صدقه وسلامته وصفائه"[1].

إنّ نظرة النقاد للمدح على أنّه شعر ينشأ عن دافع الرغبة والطمع؛ قادتهم للاعتقاد بأنّ شعر المدح لا يصدر عن عاطفة صادقة يحس بها الشاعر تجاه ممدوحه، وذلك لأنّهم غضّوا الطرف عن رؤية العاطفة الصادقة التي ينشأ عنها المدح نشأة طبيعيّة، وهي عاطفة الإعجاب والتقدير، وزعموا "أنّ العاطفة التي يصدر عنها المديح في الشعر العربي عامّة، والجاهلي خاصّة عاطفة هزيلة لا رواء فيها ولا رونق، باهتة تتراءى على استحياء، لأنّ شعر المديح في رأيهم وسيلة للتكسب والثراء"[2]. ويرون أنّ صدق العاطفة فيه – أي المدح – هو الذي يعطيه قيمة، فإن كانت العاطفة زائفة فلا حظ له من التقدير بل يزري بصاحبه، لأنّه يعد حينئذٍ في جملة المنافقين. يقول خفاجي: "والمديح لون من الشعر يزري بصاحبه إذا كان غرضه الزلفى والتماس العطايا والهبات، ولا غبار عليه إذا كان صادرًا عن إحساس صادق وشعور لا زيف فيه تجاه الممدوح، شعور بريء من غرض التكسب أو النفاق"[3]. ولعل قضيّة صدق العاطفة في المدح هي التي جعلت شوقي ضيف يصف الفرزدق – عندما يمدح بعض ولاة الأمويين – بأنّ مدحه لا يصدر عن عاطفة حقيقية صادقة، حيث يقول: "فمديح الفرزدق لولاة العراق من اليمن وقيس لم يكن صادرًا عن نفسه، بل كان منافقًا فيه، وهذه ظاهرة مهمة في ديوانه

والشطّي(محمد صالح)،في الأدب العربي القديم، دار الأندلس، حائل (المملكة السعودية)،2003م،جـ3،ص:118.

1- منصور(سعيد حسين)، حركة الحياة الأدبية بين الجاهليّة والإسلام، ط1، دار القلم، الكويت،1981م، ص:167- 168.

2- طليمات (غازي) والأشقر، الأدب الجاهلي،قضاياه،أغراضه،أعلامه،فنونه،ط1،دارالإرشاد،دمشق ص:161.

3- خفاجي(محمد عبد المنعم) وعبد الله عبد الجبار، قصّة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهريّة، مصر، 1980م ص:555.

لم تكن موجودة في الجاهليّة، لأنّ القبيلة – يعني تميمًا قبيلة الفرزدق – لم تكن تضطر إلى الخضوع لسلطان والٍ من خصومها أو منافسيها، ولم يكن يضطر شعراؤها إلى هذا اللون من ألوان النفاق السياسي لأرباب السلطان"[1].

وما قاد النقّاد إلى الحكم بزيف العاطفة هو اعتقادهم أنّ المدح إنّما ينشأ عن دافع الرغبة والرجاء في الحصول على المال، وهذا الحكم يحمل وجهًا من الصحّة، وأوجهًا من الخطأ.

فوجه الصحّة يتمثل في أنّ الرغبة في العطاء دافع من دوافع المدح، وربما حمل هذا الدافع شيئًا غير قليل من زيف العاطفة؛ نتيجة للطمع الذي يملأ قلب الشاعر، ويجعله لا يفكر في الممدوح وما يتّصف به من صفات السمو والكمال، بقدر تفكيره في الحصول على أكبر قدر ممكن من العطاء، فيعمل على نيل الرضا منه باصطناع عاطفة زائفة تجاهه. كتلك العاطفة التي صدر عنها الحارث بن حلّزة في مدح أبي حسّان قيس بن شراحيل، وهي عاطفة لا تنمّ عن عميق إعجابه بالممدوح بقدر ما تنمّ عن رغبته في عطاء الممدوح، بل يصرح أنه يبتغي المال من الممدوح بمدحتة، فيقول[2]:

أَ فَلَا نُعَدِّيهَا إِلَى مَلِكٍ شَهْمِ المَقَادَةِ حَازِمِ النَّفْسِ

فَإِلَى ابْنِ مَارِيَةَ الجَوَادِ وَهَلْ شَرْوَى أَبِي حَسَّانَ فِي الإِنْسِ

يَحْبُوكَ بِالزَّغْفِ الفَيُوضِ عَلَى هِمْيَانِهَا والدُّهْمِ كَالوَرْسِ*

وَبِالسَبِيكِ الصُّفْرِ يُعْقِبُهَا بالآنِسَاتِ البِيْضِ وَاللُّعْسِ

لا مُمْسِكٌ لِلمَالِ يُهْلِكُهُ طَلْقُ النُّجُومِ لَدَيهِ كَالنَّحْسِ

فَلَهُ هُنَالِكَ لَا عَلَيهِ إِذَا دَنِعَتْ أُنُوفُ القَوْمِ لَلتَّعْسِ**

فالعاطفة كما ترى ضعيفة فاترة، والرغبة في المال هي التي تسيطر على الشاعر وتلحّ عليه، فلا يشعرك بأنّه ينفعل ويهتزّ لما يتحلّى به الممدوح من فضائل، بل يشعرك بأنّ كلّ همّه يتّجه إلى العطاء الجزيل، وإلى ما يرغب فيه من الحباء.

أمّا أوجه الخطأ في الحكم فتتمثّل في أنّ المدح لا يصدر في مجمله عن دافع الرغبة فحسب – وهذا ما ذهب إليه النقاد إلا قلّة منهم – أنّما يصدر عن عاطفة صادقة ونبيلة هي عاطفة الإعجاب بالفضائل وبمن يتحلّى بها من أهل الفضل وهذه العاطفة هي المصدر

1- ضيف(شوقي)، التطوّر والتجديد في الشعر الأموي، ط8، دار المعارف، القاهرة، ص:146.

2- ا بن حلّزة(لحارث)، ديوانه، تحقيق: إميل بديع يعقوب،ط1،دار الكتاب العربي،بيروت،1991،ص:50-51.

* الزغف: الدرع المحكمة. الفيوض: الواسعة التي تفيض على لابسها. الهميان: شداد الدرع. الدهم: الخيل التي فيها دهمة.

**دنِعت: خضعت.

الطبيعي للمدح، أغفلها النقاد فقضوا على عواطف المدح بالزيف، وقضوا على الشاعر بالنفاق والتصنّع العاطفي. ولعلك تلحظ العاطفة وصدقها في قول زهير[1]:

فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنُوهُ مِنْ قُرَيشٍ وجُرْهُمِ

وَباللَّاتِ وَالعُزَّى التي يَعْبُدُونَهَا بِمَكَّةَ وَالبَيتِ العَتِيقِ المكَرَّمِ

يَميناً لَنِعْمَ السَّيّدانِ وُجدتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ ومُبْرَمِ

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ

وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السّلمَ وَاسِعاً بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الأَمْرِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَينِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ ومَأْثَمِ

عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍ هُدِيتُما وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ المجْدِ يُعظُمِ

فهذا المديح تقف وراءه عاطفة صادقة تملّكت نفس الشاعر هي عاطفة الإعجاب، وانفعال قوي بما قام به السيّدان: هرم بن سنان والحارث بن عوف من تحمل ديات القتلى من أموالهما الخاصة حقناً للدماء، وإصلاح ذات البين، إدراكاً للسلم بالمال والمعروف، وإطفاء لحرب داحس والغبراء التي كادت أن تعصف بالجميع. وهى حرب شهدها زهير وعايش أحداثها، ورأى ما خلفته من يتم، وهلاك، وعذاب، وفقر، وثكل، ورعب. حرب ما كانت لتنطفئ لولا ما قام به السيّدان ومن انحاز إليهما من المصلحين. فقد تحملا الديات من أموالهما- والمال أحب شيء إلى نفس صاحبه- عن طيب نفس طلباً للسلم وإحياء لأنفس كادت أن تزحق، فكان هذا أكبر مثير لإعجاب زهير الذى دفعه لمدحهما. "وكل المديح الذي خلّفه لنا زهير في قصائده هو من النوع الصادق الأصيل الرفيع النبيل، قدّر به عددًا من سادات عصره كانوا يستحقّون التقدير، ولم يكن يبغى بمديحه زلفى ولا جزاء. فالرجل كان هو نفسه سيّدًا كثير المال كما يروون. فإن كان من ممدوحيه من أهداه الهدايا؛ فالحصول عليها لم يكن الغرض الذي رمى إليه بمديحه، بل كانت هذه الهدايا مجرد صلة يراد بها التكريم.

لقد أعجب القدماء بصدق زهير في مديحه إعجابًا كبيرًا، وكلّما كان تمكنهم من الروح الإسلاميّة الصحيحة كان إعجابهم أعظم، لذلك نجد على رأس المعجبين به عمر بن الخطّاب (رض)، الذي فضّل زهيرًا على الشعراء لأنّه لا يغالي في مدحه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه "[1].

1- ابن أبي سلمى(زهير)، ديوانه، ط 1،دار الكتب العلمية،بيروت،1988م،ص: 105- 106.

ولعلك تلحظ ما بين العاطفتين من فرق واضح في الانفعال والتأثير، فهل يقال على عاطفة زهير أنّها مزيفة أو مصطنعة، بلا شك لا يمكن أن يطلق هذا عليها.

ثمّ أنّ المدح – من جانب آخر – يصدر عن دافع الشكر والتقدير، وهو دافع تثيره عاطفة الإعجاب بحسن الصنيع والعجز عن المكافأ، وهي أيضًا عاطفة صادقة لا تزلّف فيها ولا زيف. وعلى هذا فالحكم على العاطفة في المدح بالزيف والفتور بحسبان أنّ كلّ المدح يصدر عن دافع الرغبة في التكسب؛ أمر يفتقر إلى الصواب، وهو بحاجة إلى إعادة نظر من قبل الدارسين.

ويرى النقّاد أنّ الرغبة في المال، قد صرفت الشعراء عن التفكير في الممدوح وما يتّصف به من صفات السمو والكمال، وجعلتهم يفكرون في الحصول – بقدر الإمكان – على أكبر قدر من العطاء. ولهذا باتوا يعملون على نيل رضا الممدوح؛ بنعته بصفات كمال ليست فيه أو بوصفه بما ينبغي لا بما هو فيه حقيقة. فأصبح شعر المدح في جملته شعرًا كاذبًا، يرفع الوضيع، ويعلي من شأن من لا يستحق، طالما كان في موضع رجاء الشعراء، وطالما سيرضي مطامعهم، حيث " وصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم، والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم "[2].

فهم كما ترى يستدلّون على هذا الكذب بأنّ الشاعر إذا لم يعط هجا من كان يمدحه،

وأنّه يضفي على ممدوحه صفات ليست فيه ومناقب لا يتحلّى بها، وهم بذلك يتهمونه بالكذب وبفتور العاطفة. يقول النويهي: "وليس بين فنون الشعر العربي فنّ طرأ عليه من التبدّل والانحطاط ما طرأ على فن المديح. وليس بين هذه الفنون جميعًا ما ينفر منه ذوقنا الحديث كما ينفر من هذا الفن. ذلك أنّ معظم ما نظم فيه على طول الشعر العربي ذي التاريخ الطويل قد تلبّس بالكذب والنفاق، والمداهنة والملق، والاصطناع الأدائي، والتكلّف التعبيري، حتّى صار هذا الكمّ الأكبر من المديح الجزاف هو السبّة الأولى في جبين تراثنا العظيم"[3]. ويرى نبيل أبو علي أنّه "منذ العصر الأموي انتشرت ظاهرة التكسّب بالشعر ورفع الشعراء قدر الوضيع، وجعلوا الجبان شجاعًا، والبخيل كريمًا، وذلك مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر وإلا انقلب عليه وهجاه بما هو فيه من صفات"[4]. ويحتج أحمد أحمد بدوي على أنّ النقّاد لم يلزموا الشعراء بالصدق وتركوهم يكذبون، فيقول: "ومع أنّ نقاد العرب اتّخذوا الصدق والكذب من المقاييس التي يقوّم بها الكلام البليغ؛ إلا أنّهم لم يطبّقوه في شعر المدح، ولو أنّهم فعلوا لألزموا الشعراء التصوير الصادق لمن

1- النويهي (محمد)، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه،،الدار القومية للطباعة والنشر،جـ2،ص:619.

2- المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، ط2،دار الكتب العلمية، بيروت،1998،ص:16.

3- النويهي (محمد)، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، جـ2، ص:617.

4- أبوعلي (نبيل خالد)، المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين، مجلة الجامعة الإسلاميّة (سلسلة الدراسات الإنسانيّة)، العدد2، يونيو 2007م، م15، ص:148.

يمدحونهم، ولكنّهم تركوا للشعراء الحبل على القارب، فأخذوا يصفون الحقير بصفات الرفيع، ويطرحون على الدنس الفاسد رداء الصلاح والتقوى، وانصرف النقّاد إلى معاني الشعر يدرسونها، من غير أن يقفوا ليتبيّنوا ألهذه المدائح أصل تعتمد عليه، أم هي من نسج الخيال؟"[1].

إن قضيّة الصدق والكذب في الشعر من القضايا النقديّة التي اختلف حولها النقّاد فمنهم من ربطه بالأخلاق، وربما كان ذلك بتأثير الإسلام. خاصّة عندما قرأ المسلمون الآية التي تذمّ الشعراء ﴿ ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ...﴾[2]. وربما كانت لمقولة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في زهير بن أبي سلمى "كان لا يعاظل في القول، ولا يتّبع حوشي الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " صدى لهذا المفهوم، وإليه يشير حسّان بن ثابت[3]:

وَإِنَّمَا الشِّعْرُ لُبُّ المَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى المَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

ويعلق وليد الأعظمي على قول حسّان بقوله: "وواضح ما يريده حسّان من الشعر وما ينبغي أن يكون عليه، وهذا هو الذي يريده الإسلام، وهو الذي يريده الشاعر المسلم، إنّه لا يريد إعجاب النّاس بمبالغته ووصفه المعقّد وتركيبه الغريب، وإنّما يريد التأثير بالحقّ، والنّاس دائمًا تتأثّر بالصدق ولو كان غير منمّق العبارة"[4].

وفريق يرى أنّ لا علاقة بين الشعر والأخلاق، بينما يرى آخرون عكس ذلك بشرط أن لا تؤثر حقيقة الأخلاق على فنيّة الشعر، فيضيق الشاعر أمام قيود الأخلاق، وأمام ما فيها من الحقائق، فيمنعه ذلك من أن يساير إلهامه وأن يجري مع طبيعته.

إنّ محاولة تطبيق قضيّة الصدق على المدح نابعة من نظرة النقاد إلى المدح على أنّه شعر للتكسب فحسب وهذا ما يجعل الشاعر يكذب لتحقيق مآربه وبلوغ غاياته، على نحو قول البيهقي الذي ينعت الشعراء بعامة بالكذب وذلك لتكسبهم بالشعر: " قيل: ليس أحدٌ من النّاس آكل للسحت، وأنطق بالكذب، ولا أوضع، ولا أطمع، ولا أقل نفسًا، ولا أدنى همّة من شاعر"[5]. وهذا القول يغفل

1- بدوي(أحمد أحمد)، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص:213.

2- سورة الشعراء، الآية:225-226.

3- ابن ثابت(حسّان)،ديوانه، تحقيق: عبده على مهنا،ط2، دار الكتب العلمية، بيروت،1994،ص:174

4- الأعظمي(وليد)، شاعر الإسلام حسّان بن ثابت، الكويت، ص:126.

5- البيهقي(إبراهيم بن محمد)، المحاسن والمساوئ، صحّحه: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، 1906م، ص:98-99.

الناحية الفنيّة في الصدق والكذب في القول الشعري الذي لا يضاد الأخلاق الإسلاميّة في أصله لأنّه قول تخييلي، وإلا كيف يفهم سكوت النبي (ص) عن قول كعب بن زهير[1]:

لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

وهو يعلم أنّه مذنب، فلم ينعته بالكذب، ولم يكفّه عن الإنشاد بسبب ذلك الكذب. وكيف يفهم سكوته عن قول حسّان بن ثابت[2]:

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وهو الذي أقام عليه الحدّ، ورغم ذلك لم يكفّه عن المدح لمجانبته الصدق كما يقولون.

وقد فطن النقّاد القدماء إلى هذه القضيّة مبكرًا، حيث فرقوا بين الصدق المطابق للواقع والأخلاق وبين الصدق الفنّي، وبينوا أنّ " الشعر ليس من الكلام الذي نحكمه بمعيار الصدق الواقعي والكذب"[3]. وأنّ الصدق المطابق للواقع والأخلاق قد يحمد في مواطن من الشعر ويستقبح في مواطن، يقول حازم: أمّا "القول الصادق فمنه القول المطابق للمعنى على ما وقع في الوجود، ومنه المقصّر عن المطابقة بأنّ يدلّ على الوصف ويقع دون الغاية التي انتهى إليها الشيء من ذلك الوصف. فهذا النوع من الصدق في الشعر قبيح من جهة الصناعة وما يجب فيها"[4]. وعلى هذا فليس من الضروري أن يلتزم الشاعر الصدق، لأنّ صنعته مرتبطة بالتخييل. يقول قدامة "بلغني عن بعضهم أنّه قال أحسن الشعر أكذبه ... إنّما أرادوا به المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم، فإنّما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر"[5]. "وقد وصف شعراء مصيبون متقدمون قومًا بالإفراط في هذه الفضائل، حتّى زال الوصف إلى الطرف المذموم، وليس ذلك منهم إلا كما قدمنا القول فيه في باب الغلو في الشعر: من أنّ الذي يراد به إنّما هو المبالغة والتمثيل، لا حقيقة الشيء"[6]. ويذهب ابن رشيق هذا المذهب حين يبيّن فضيلة الشعر فيقول: " ومن فضائله أنّ الكذب الذي اجتمع النّاس على قبحه حسن فيه وحسبك ما حسّن الكذب، واغتفر له قبحه"[7].

1- ابن زهير(كعب)، ديوانه، ص:114.

2- ابن ثابت(حسان)، ديوانه، ص:191.

3- آل جهجاه (الجوهرة بنت بخيت)، تجلّيات التشكيل النقدي لنظريّة الصدق في النقد العربي القديم، مجلة جامعة المدينة العالمية المحكمة (مجمع)، العدد2، مارس،2012م، ص:20.

4- القرطاجنّي (حازم)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب، دار الكتب الشرقية،تونس،ص:70.

5- ابن جعفر(قدامة)، نقد الشعر،،تحقيق: محمد عبد المنعم، دار الكتب العلمية، بيروت،ص:94.

6- المصدر نفسه، ص:99.

7- ابن رشيق(القيرواني)، العمدة، ص:22.

ومن هنا يمكن القول أنّ النقاد القدماء يعون أنّ الصدق في الشعر لا يعني أن يطابق الموصوف الواقع، وإنّما يسمح بتجاوز الواقع بشيء من المبالغة على ألا تخرج إلى باب ما يستحيل وقوعه على نحو ما يرى حازم عند تعليقه على بيت شعر للمتنبّي: "ولا يلزم أبا الطيب أن يكون صادقًا في ذلك، لأنّ صناعة الشعر لها أن تستعمل الكذب، إلا أنّها لا تتعدى الممكن من ذلك، أو الممتنع إلى المستحيل، وإن كان الممتنع فيها أيضًا دون الممكن في حسن الموقع من النفوس"[1]. كما أنّ نقّاد العصر الحديث يعون مفهوم الصدق الفنيّ أيضًا وأنّ "صدق التجربة لا يعني بالضرورة مطابقتها للواقع؛ لأنّ ذلك قد يكون من شأن التجارب العلميّة، أمّا التجارب الشعرية فالصدق فيها يعني أن تكون مطابقة لوجدان الشاعر، موضّحة لحقيقة مشاعره"[2]. ولكن رغم وعي النقاد قدماء ومحدثين بقضيّة الصدق والكذب إلا أنّهم حينما عرضوا لشعر المدح لم يطلبوا من الشاعر سوى الالتزام بالصدق المطابق للأخلاق والواقع. وذلك لأنّهم لا يفكرون إلا في أنّ شعر المدح هو شعر – في عرفهم – هدفه التكسب لا غيره وأن هذا التكسب يدفع الشاعر إلى الكذب؛ فيكذب ويزيّف الحقائق ويبالغ في ذلك.

والذي ينظر في ما تقدم من نماذج المدح سيلاحظ إلى أي مدى كان الشاعر صادقًا هو يصدر عن دافع الإعجاب، وإلى أيّ مدى كان الأعشى وهو المتكسب صادقًا حين يمدح بني شيبان لبلائهم يوم ذي قار:

فِدًى لِبَنِي ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلَّتِ

هُمُ ضربوا بالحِنْوِ حنو قُراقِرٍ مقدمة الهامرز حتّى تولّتِ

فللّه عينا مَنْ رأى مِنْ عصابة أشد إلى أيدي السعاة من التي

أتتهم من البطحاء يبرقُ بيضُها وقد رُفعت راياتُها فاستقلَّتِ

كفوا إذ أتى الهامرز تخفق فوقه كظل العقاب إذ هوت فتدلّتِ

وأحموا حِمى ما يمنعون فأصبحت لنا ظُعُنٌ كانت وقوفاً فحلّتِ

أذاقوهم كأساً من الموت مُرَّةً وقد بُذخت فرسانُهم وأدلّتِ

فجادت على الهامرز وسط بيوتهم شآبيب موت أسبلت واستهلّتِ

تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلبٌ فَوَلّتِ

1- القرطاجنّي (حازم)،منهاج البلغاء وسرج الأدباء،ص:120.

2- المجالي(جهاد)، التجربة الشعريّة بين الصدق الفنّي وصدق الواقع، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد27، جمادى الآخر، 1424هـ، جـ15، ص:928.

فالصدق الفني يتحقق بصورة كبيرة في المدح الذي يصدر عن دافع الإعجاب، ودافع الشكر، ودافع الرهبة، وحتى دافع الرغبة إذا حاولت قياس الصدق فيه ستجد أنه لا يخلو من الصدق الفني. ولكن " هذه العناية البالغة بالصدق صرفتنا عن تحليل الشعر ذاته، وخيّل إلى كثيرين أنّ أمور الصدق ألصق بالشعر من توضيح العمل توضيحًا مستقلًّا، بل إنّ الشعر عند دعاة الصدق هو حياة صاحبه. ولذلك كانت مهمّة الناقد أن ينظر في الشعر لكي ينتهي إلى الشاعر، وأن ينقل العمل من دائرة الفن إلى دائرة الحياة "[1].

أمّا "المبالغة في المدح فلها ما يسوّغها لأنّ الشاعر ينقل إلينا صور الحياة، وأحداث التاريخ بريشة الفنّ لا بمنطق العقل. فله أن يستخدم من المعاني والصور ما يصلح لإمتاع النّاس قبل إقناعهم "[2]. والنقّاد قد ذهبوا هذا المذهب حيث يقول قدامة: " وينبغي أن يعلم أنّ مدائح الرجال ... تنقسم أقسامًا بحسب الممدوحين من أصناف النّاس، في الارتفاع والاتّضاع، وضروب الصناعات، والتبدّي والتحضّر..."[3]. ويرى أنّ الملك يمدح بما يوافق صفات الهيبة والرفعة والعلو التي تكون للملوك وبغيرها من الصفات التي يشترك فيها مع النّاس، ويمدح الوزير والكاتب بما يليق بالفكرة والرويّة وحسن التنفيذ والسياسة، وهكذا لكل إنسان صفاته التي يمدح بها بحسب مقامه[4].

وإذا كان النقّاد يقولون أنّ لكل إنسان مدحًا خاصًا به، فهذا لا يعني أنّهم يريدون أن يقف الشاعر عند الصفات الحقيقيّة للممدوح، بل معنى ذلك أنّ لكل صنف من النّاس صفات خاصّة يمدح بها. وأنّ على الشاعر أن يلجأ إلى هذه الصفات، فيصف بها ممدوحه، سواء أكانت فيه أم لم تكن.

وللمبالغة مسوّغ آخر وهو أنّ الشاعر لم يكن يرسم الممدوح بصفاته التي يراها فيه، بل بالصفات التي يودّ لو تكون فيه، أي أنّ المادح – وهو يرسم الممدوح – يتصور المثل الأعلى للرجل الكامل الفاضل كما تقتضي المفاهيم الاجتماعيّة في العصر، سواء أتحقق الكمال في الممدوح أم لم يتحقق، وكأنّه بهذا يسعى إلى غاية حددها تصوّر النّاس للفضيلة والرجولة، ويعبّر عن الوظيفة الاجتماعية في المدح، وعن الوظيفة الإصلاحيّة التي يضطلع بها، وعن الرسالة الخلقيّة التي يبشّر بها[5].

خاتمة:

من خلال دراسة دوافع المديح والنظر إلى الأحكام النقدية وفق هذه الدوافع؛ توصّلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1- ناصف(مصطفى)، دراسة الأدب العربي،ط2،دار الأندلس،بيروت،ص:319.

2- طليمات (غازي) وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ص:162.

3- ابن جعفر(قدامة)،نقد الشعر، ص:106-107.

4- المصدر نفسه، ص:107-112.

5- طليمات (غازي) وعرفان، تاريخ الأدب العربي: الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه ص162:.

– إنّ النقاد حينما انتقدوا المدح كان تركيزهم على دافع الرغبة فحسب مما كان له الأثر الأكبر في ظهور أحكام نقديّة حطت من قدر الشعر العربي كثيرًا.

– أدى اهتمام النقّاد بدافع الرغبة، وإهمالهم للدوافع الأخرى إلى صدور العديد من الأحكام النقديّة غير السليمة كنعتهم للشعر بأنّه تجارة العرب، وللمدح بأنّه يصدر عن عاطفة زائفة، وأن الشعراء يتعمدون فيه الكذب والتزييف.

– إنّ النظر إلى دوافع الشعر من خلال منظار المديح فيه شيء من الجور على الشعر بصورة عامة، فالشعر ليس كلّه مدح، فهناك أغراض معلومة استغرقت أغلب الشعر العربي؛ كلها صادرة عن دوافع أصيلة صادقة لا تمتّ إلى دوافع شعر التكسب بصلة. فمن القصور أن يتجاوز النقّاد مثل هذه الدوافع ويسكتوا عنها، ثم يجعلوا الرغبة أوالطمع أو الرجاء أقوى الدوافع إلى قول الشعر.

– إن لدافع الرغبة أثر كبير في شعر المديح، لأنّه صرف النقّاد عن النظر إلى المدح على أنّه فنّ له خصائصه التعبيريّة، والجماليّة التأثيريةّ، وله رسالته الاجتماعيه التربويّة الخلقيّة، وسماته الذاتيّة والإنسانيّة. فتجاوزوا الفنّ ونظروا إلى العلاقة بين المادح والممدوح، وعلى ضوء هذه النظرة كانت أحكامهم.

– إن الصدق المطلوب من الشاعر ينبقي أن يكون صدقاً فنياً وليس صدقاً واقعياً؛ لأن الشعر يقبل المبالغة المعقولة.

ABSTRACT: This study deals with the critical judgments made by critics on praise poetry, in order to identify them and to reveal the great role of praise motives in guiding these critical judgments. Its importance appears in that it tries to attribute praise to its motives and to carefully read the rulings decided by the critics according to these motives to indicate whether they are correct or in need of evaluation. The study relied on the descriptive and analytical method, and reached a set of results, the most important of which is that, the judgment on praise poetry was greatly influenced by the motive of desire, which is a motive that distracts critics from looking at praise as an art that has expressive and aesthetic and influential characteristics, and has its moral social and educational mission. Its subjective and human characteristics. They went beyond art and looked at the relationship between praising poet and praise, and in light of this view were their judgments.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

1. **ابن أبي سلمى(زهير)، ديوانه،** ط 1،دار الكتب العلمية،بيروت،1988م.
2. **ابن ثابت(حسّان)، ديوانه،** تحقيق: عبده على مهنا،ط2، دار الكتب العلمية، بيروت،1994.
3. ابن جعفر(قدامة) ، **نقد الشعر،** تحقيق: محمد عبد المعنم، دار الكتب العلمية، بيروت.

4. **ابن حلّزة(لحارث)، ديوانه**، تحقيق: إميل بديع يعقوب،ط1،دار الكتاب العربي،بيروت،1991.

5. **ابن رشيق(القيرواني)، العمدة**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،ط5،دار الجيل،جـ1981،1م.

6. أبوعلي(نبيل خالد)، **المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين**، مجلة الجامعة الإسلاميّة (سلسلة الدراسات الإنسانيّة)، العدد2، يونيو 2007م، م15.

7. الأصفهاني(الراغب)،**محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، تحقيق: إبراهيم زايد، مكتبة الهلال، مصر،1902م.

8. الأعظمي(وليد)، **شاعر الإسلام حسّان بن ثابت**، الكويت.

9. آل جهجاه (الجوهرة بنت بخيت)، **تجلّيات التشكيل النقدي لنظريّة الصدق في النقد العربي القديم**، مجلة جامعة المدينة العالمية المحكمة (مجمع)، العدد2، مارس،2012م.

10. البيهقي(إبراهيم بن محمد)، **المحاسن والمساوئ**، صحّحه: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، 1906م،

11. بيومي(السباعي السباعي)،تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مطبعة العلوم،مصر،1932م.

12. خفاجي(محمد عبد المنعم)،**الحياة الأدبيّة في العصر الجاهلي**،ط1، دار الجيل،بيروت،1992م.

13. خفاجي(محمد عبد المنعم) وعبد الله عبد الجبار، **قصّة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، مكتبة الكليات الأزهريّة، مصر، 1980م

14. الشطّي(محمد صالح)، **في الأدب العربي القديم**، دار الأندلس، حائل (المملكة السعودية)،2003م،جـ3.

15. ضيف(شوقي)، **تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي**، ط7،دار المعارف، القاهرة..

16. ضيف(شوقي)، **التطوّر والتجديد في الشعر الأموي**، ط8، دار المعارف، القاهرة.

17. طليمات(غازي) وعرفان الأشقر، **الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه**، ط1،دار الإرشاد، دمشق.

18. فرّوخ(عمر)،**تاريخ الأدب العربي**،ط4،دار العلم للملايين،بيروت،1981م.

19. القرطاجنّي(حازم)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب، دار الكتب الشرقية، تونس.

20. المجالي(جهاد)، **التجربة الشعريّة بين الصدق الفنّي وصدق الواقع**، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد27، جمادى الآخر، 1424هـ، جـ15.

21. المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام**،ط2،دار الكتب العلمية، بيروت،1998.

22. منصور(سعيد حسين)، **حركة الحياة الأدبية بين الجاهليّة والإسلام**، ط1، دار القلم، الكويت،1981م.

23. ناصف(مصطفى)، **دراسة الأدب العربي**،ط2،دار الأندلس، بيروت.

24. النويهي(محمد)، **الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه**، الدار القومية للطباعة والنشر، جـ2.

25. يوسف(حسني عبد الجليل)، **الأدب الجاهلي، قضايا، وفنون،ونصوص**، ط1،مؤسسة المختار،القاهرة،2001.